



الأربعاء 28 أبريل 2010 07:03 م  
كتب: بقلم: الشيخ محمد عبد الله الخطيب

### مفهوم الدعوة إلى الله وحقيقة الإصلاح

قال تعالى: **﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِليه أُنِيبُ﴾** (هود: من الآية 88).

يقول بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: الإصلاح هو محاولات إنقاذ الإنسان وإخراجه من الظلمات إلى النور، وتبصيره بحقيقة الحياة وحقيقة نفسه.

هذا العلاج للفرد والمجتمع والدولة، للصغير والكبير، للمتعلم والأمي، لا يستغني عنه أحد، وإلا عاش في ظلام المادة، وهو بهذا المعنى الدقيق يعود نفعه على الجميع وفائدته، وهو مهمة الرسل والأنبياء ومن جاء من بعدهم ممن حمل رسالتهم، وأدى دورهم، وقاد الناس والمجتمعات في طريق الخير.

إن الإصلاح بهذا المعنى الدقيق وبهذا المفهوم الصحيح؛ إنما يفوّت فقط الكسب الخبيث، ويضئ الفرص غير الكريمة والتي لا تليق بالإنسان؛ لأن الإسلام يقيم من كل مؤمن ميزانا صحيحا دقيقا، يجعله لا يمدُّ يده ولا يسعى إلا إلى الخير، ولا يحرص على المغالاة أو يحب نفسه ويعيش لها فقط، بل يعيش لغيره كالمصباح الذي يضيء لغيره في الظلام، بينما هو يتحمّل ثمن هذه الإضاءة.

ما هو الإصلاح إذا؟

هذا هو الأساس الذي نريد أن نكشف عنه، ونقول: **﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾** (الأعراف: من الآية 89)، يرى الذين لا يزون الحياة إلا متعة ومادة وطعاما وشرابا أن الإصلاح غير ما ذكرنا؛ فهو عندهم: إنشاء الكباري، ورفص الطرق، وتوسيع الميادين، وإنشاء المدارس والمصانع والمتاجر، وإقامة المنزهات.

وينادر بالقول حتى لا يظنّ أحد أننا لا نريد هذه الأشياء، بل نريدها ونحرص عليها أكثر من حرص الماديين عليها، لكن لا نسمّيها إصلاحا، بل نسمّيها باسمها الصحيح: ضرورات اجتماعية حيوية ضرورية، لا يستغني عنها مجتمع؛ فالأولاد لا بد لهم من مدرسة أو معهد أو جامعة يتعلّمون فيها، وتكفيهم أسانذتها.

والمرضى لا بد لهم من مستشفيات تكفيهم، وتستعد دائما لاستقبالهم وعلاجهم بأعظم الأطباء وأكثرهم خبرة، ولا تُفَرِّط أبدا في إنقاذ أي مريض، والناس في مسيرتهم يحتاجون إلى طرق مرصوفة معبّدة تُنظّم عليها السير، تكفيهم ولا تضيق بكثرتهم.

والإنسان يحتاج إلى المتنزّهات؛ بما فيها من خضرة وجمال وورد، والإسلام يضمن لكل فردٍ في المجتمع البيت الذي يابيه، والعمل الذي يكفيه، والدأبة التي تحمله إلى عمله "اشتراك في المواصلات مثلاً"، فالكفالة في هذه الأشياء التي ذكرناها ضروراتٌ حتمية لازمة للإنسان، أما أن تُسمّى إصلاحًا فهي المشكلة.

لإصلاح في تقديرنا أمرٌ أعلى من ذلك وأجلُّ.. مهمة الرسل والأنبياء كما ذكرنا، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور كما بيّنّا.

يقول العالم والمربي المرحوم الفاضل، البهي الخولي- رحمه الله:- "هناك جماعاتٌ تظنُّ الإصلاح مدارسَ تُنشأ، وجامعاتٍ تُقام، وترغماً تُحفر، ومصحّاتٌ تُبني، ومصارفٌ تُدبّر المال، ومصانعٌ تُسدُّ حاجة البلاد، إلى آخر ما هنالك مما يدور على ألسنتهم، ويتشبع من أدينتهم وصحفهم، وليس هذا من الإصلاح في شيء، إنما هو ضروراتٌ حيويةٌ يجب أن يسار إليها مع منطلق الحاجة الاجتماعية، أما أنها هي الإصلاح والإنقاذ فلا".

ثم يقول: "ماذا أعنى الاهتمام بالترع والجسور والمدارس والمصانع والمسارح والصحف وغيرها في أوروبا وغيرها من الدول التي تدعى التمدُّن والرقى.. ماذا أعنى الاهتمام بهذا والروح مريض، والاتجاه القلبي فاسد؟، ماذا أعنى ذلك غير الاضطرابات والقلاقل والمبادئ التي تقوم ثم تزول، والحروب التي تنطفئ ثم تستعر إلى ما شاء الله" (راجع تذكرة الدعاء).

وكل من زار البلاد التي تزعم أنها متحضّرة رأى بعينه ماذا يدور في المتنزّهات، وماذا يُرتكب فيها من موبقات وفواحش علنًا؛ مما يندى له الجبين؛ لأنها عودة إلى عصور التخلف والحيوانية الممقوتة، ولذلك اتجهت الرسائل السماوية، وخاصة الدين الخاتم إلى إصلاح الإنسان أولاً واستقامته ورُقّيه وأخلاقه، وأصبح بحق خليفة الله في الأرض، يصلح ولا يفسد، ويصعد ولا يهبط.

هل زرت مكة أو المدينة حفظهما الله ورأيت الشوارع والمباني المتواضعة؟! وهل سألت نفسك ماذا كانت هذه المباني منذ ألف وأربعمائة سنة يوم بُعث صلى الله عليه وسلم؟ ولماذا لم يسارع المسلمون إلى بناء المتنزّهات وتعبيد الطرق، قبل إصلاح الإنسان؟!

لقد رُبي الإنسان فصار أمينًا صادقًا راقيًا رحيماً بغيره، ينفر من كل الخطايا، ويتعد عن الكذب، ويمشي على الأرض وقلبه موصول برب الأرض والسما، بل أصبح يعيش في هذه الدنيا والجنة والنار أمام نظره.

يسأل صلى الله عليه وسلم أحد الصحابة، وهو حارثه، فيقول له: "كيف أصبحت يا حارثه؟"، فيرد بإيمان وصدق: يا رسول الله، أصبحت مؤمنًا حقًا، فيقول له الرسول صلى الله عليه وسلم: "ويحك يا حارثه، انظر فإن لكل قولٍ حقيقةً، فما حقيقة إيمانك؟"، قال: يا رسول الله، عرفت نفسي عن الدنيا، فأطمأت نهارى، وأسهرت ليلي، ووالله لكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وأنظر إلى أهل النار يتصايحون فيها، قال: "يا حارثه، قد عرفت فالزم" ثلاث مرات.

ذلك هو الإنسان الحقيقي الذي خلقه الله، وأسجد له ملائكته، لا الإنسان الحيواني الذي يعندي على غيره، ولا الذي انحطَّ فيه رُب السموم ليهلك بها قومه، ولا الذي تدنى فلا همَّ له إلا الكسب الخيبي، والتعامل بالربا والغش والكذب.

ماذا فعل المسلمون بالبوسنة حتى يوضعوا في مقابر جماعية ويدفنوا وهم أحياء؟ وماذا فعل الأفغان المساكين وهم يُقتلون عمدًا؟ هل هناك سبب أو جريمة ارتكبوها في حقِّ أحد؟ وماذا فعل أهل العراق حتى يُدمّر هذا البلد الإسلامي على من فيه؟ وماذا فعل أهل فلسطين حتى توضع النساء والفتيات المسلمات في السجون والمعقلات، ويوضع الرجال في السجون؟ هذا من نجا، أما الباقي فقد استنطاق اليهود الخنازير- في غفلةٍ من المسلمين- ألا يدعوا مسلمًا إلا آذوه، وأصبحوا عقارب تلدغ، وحيات سامة تنهش.. هل هذه هي المدينة؟ وهل هذا هو الإصلاح؟!

ن الإصلاح هو الذي يرفع من قدر الإنسان حتى يصبح ملكًا يمشي على الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)﴾ (الفرقان).

أذكر هنا- وأنا في غاية الألم- حادثةٌ حدثت لمسلمي البوسنة، وهي من آلاف الحوادث والمآسي، رواها صحفي أجنبي ذهب إلى هناك، فيقول: رأيت بعيني أمًا وأبًا وطفلهما، من المسلمين أحضرهم الجنود وأخذوا من الأم الطفل وشووه فوق النار، ثم أمروها بالأكل منه هي ووالده! فأكلا منه تحت تهديد السلاح، ثم قتلوهما!.

أرأيت البشرية حين يغيب عنها دعائها وروّادها وأهل الخير فيها، يعيرون رغم أنوفهم فتظلم الدنيا ويعمّ الفساد ويسيطر الهوى ويشيع الظلم.. يقول الشاعر:

مررت على الفضيلة وهي تبكي فقلتُ علامَ تنتحب الفتاة؟

فقلت: كيف لا أبكي وأهلي جميعًا دون أهل الله مانوا؟!!

ألا هل بلغت!! اللهم فاشهد..

اللهم أصلح هذه الأمة، اللهم ردّ إليها ما ضاع منها، اللهم فَرِّجْ عن كل مَنْ في سجونها من المؤمنين، اللهم أصلح حال الجميع، اللهم ردّ هذه الأمة إلى الحق ردًّا جميلًا، اللهم أيعظهم من سُبّاتهم، اللهم وفقهم للحق ولحمل رسالة الإسلام وتلبيغه بين الأنام؛ فهو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذه الأمة، وإنقاذ من حولها من الذين أبعدهم الشيطان عن الطريق الصحيح.

اللهم آمين.. اللهم آمين.. اللهم آمين.

-----

\* من علماء الأزهر الشريف.

<https://ikhwanonline.com/article/64024>